

تمظهرات التاريخ الإسلامي في الرواية الجزائرية

”رواية الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي“ أنموذجا

أ. حسينّة سلام

كلية الآداب واللغات جامعة تبسة

الملخص:

تتناول هذه المقالة واحدة من إبداعات الطاهر وطار "الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي" التي يسعى من خلالها إلى إعادة قراءة التاريخ الإسلامي والتأكيد على مقولته أن التاريخ يعيد نفسه، من خلال تركيزه على قيمة القتل باسم الدين التي نعيشها في عصرنا الحالي، حيث يتقاطع الواقعي والتخيلي وفق لغة سردية تناصية مع التراث الديني والتاريخي كاشفة عن رؤية رفضية واحتجاجية لما كان وما هو كائن ومتخوفا مما سيكون. هذه الرواية والتي تحمل بين طياتها الكثير من التجريد السريالية تتصارع فيها أفكار سياسية وثقافية واجتماعية يدور رحاها في الماضي والحاضر تصور الأحداث التاريخية تصويرا فنيا وملحميا بتعبير صوفي ورؤية سياسية. تجعل من الحوار والمونولوج والاستحضار التناصي للشخصيات الدينية الإسلامية مرتكزا تعانين من خلاله الواقع الروائي الممثل، تمثيلا حقائقيا أو تخيليا، ينطلق من رؤية الروائي الخاصة للعالم والواقع والتاريخ الإسلامي في حد ذاته. الأمر الذي يدعو إلى جملة من التساؤلات نتوخى مقاربتها في هذه الأسطر. من أهمها: كيف تمثل التاريخ الإسلامي في الرواية؟ وهل استطاع الروائي أن يقنع المتلقي بأفكاره النقدية؟ وهل كانت عودته إلى مقامه الزكي عودة موفقة أم مستحيلة؟ وهل العودة إلى التاريخ الإسلامي عودة لها مبرراتها في الرواية؟ وعليه سنحاول استجلاء أهم المحطات المتعلقة بالتاريخ الإسلامي في الرواية وتحليلها للكشف عن وعي السارد ومدى إدراكه لوضعه وحساسيته سواء الدينية أو السياسية.

Summary:

*Manifestations of Islam history in contemporary Algerian novel "wail Tahir back to his place innocent" – model **

This article deals with one of the creations of Al-Tahir and Tariq al-Wali al-Tahir, which is based on his zakih position, in which he seeks to re-read Islamic history and to emphasize that history repeats itself by focusing on the theme of murder in the name of the religion we live in today, Realistic and imaginative according to the language of narrative contradictions with the religious and historical heritage revealing a vision of rejection and protest of what was and what is and is afraid of what will be. This novel, which carries a lot of abstraction and surrealism, struggling with political, cultural and social ideas, revolves in the past and present, And a political vision. It makes the dialogue, monologue and the evolution of the Islamic religious figures a basis in which the

reality of the narrator is represented, a representation of fact and fiction, based on the vision of the novelist of the world and the reality and Islamic history in itself. This raises a number of questions. The most important of these are: How does Islamic history represent the novel? Was the novelist able to convince the recipient of his critical ideas? Was his return to his place Zaki a successful or impossible return? Is the return to Islamic history a return to its justification in the novel? From here we will try to clarify the most important stations related to Islamic history in the novel and analyze it to reveal the awareness of the narrator and his awareness of his status and sensitivity, whether religious or political

إن الرواية لا تكتب نصا تاريخيا بقدر ما تقدم تصويرا تخيليا يلامس الواقع ويعبر عنه بطريقة فنية تحاول أن تعيد صياغة التاريخ وتوظيفه من باب النقد والمساءلة، لا من باب التأريخ فالروائي بطبعه الثقافي الأدبي منفلت عن التاريخ، فهو يأخذ منه ما يخدم فكرته ورؤيته ويبني على أساسه مساره السردى ينطلق منه ليصل إلى حقيقة مغايرة متخيلة في أغلب الأوقات بغرض توسيع الدلالة وبناء الحكاية السردية "ذلك أن التخيل التاريخي في نظره هو المادة التاريخية المتشكلة بواسطة السرد وقد انقطعت عن وظيفتها التوثيقية، وأصبحت تؤدي وظيفة جمالية، كما أن ابتكار حبكة للمادة التاريخية هو الذي يحيلها إلى مادة سردية" (1). وهنا يكمن الاختلاف بينه وبين المؤرخ الذي ينطلق من تساؤلات تفكيكية وضوابط علمية عقلية بعيدة عن العاطفة. وتأسيسا على هذا يبرز التمايز بين العقل والإبداع هذا الأخير من أبنيته الأساس العاطفة والخيال، رغم أن مصدره العقل الذي يصنع الخيال المتجاوز للتوثيق التاريخية، إما بالإضافة أو التغييب أو التركيب بين المتناقضات، بين المقدس والمدنس بين القديم والجديد أو الفصل بينهما، فيغدو التاريخ الجاف المتوقف في لحظة زمنية ماضية حيا حيويا في الراهن الزمني الروائي.

يرى سعيد يقطين " أن النصوص الروائية المعاصرة تتعامل مع التراث العربي وفق نمطين أو شكلين:

الشكل الأول: هو الانطلاق من نص سردي قديم كشكل واعتماده منطلقا لإنجاز مادة روائية، وتداخل أشكال السرد وأنماطه، ومن ذلك التداخل بين لغة المبدع باللغة المستلهمة كأسلوب المقامات والرسالة.

الشكل الثاني: هو الانطلاق من نص سردي قديم محدد الكاتب والهوية وعبر الحوار أو التفاعل النصي يتم تقديم نص سردي جديد (الرواية)، إنتاج دلالة جديدة لها صلة بالمتن الجديد الذي ظهر فيه النص². والظاهر وطار كتب روايته حسب الشكل الثاني فقد أخذ النص التاريخي الذي يمتد في الحاضر بكل دلالاته. فالتاريخ يتداخل مع الرواية في قضية السرد وحكي الوقائع التاريخي، "والنص الروائي دائما ما يأتي بموقف من الذات والواقع والتاريخ عبر نقده لمختلف أنماط الوعي التي عمل على تعريتها والكشف عنها، وهو يؤطرها في جذورها التاريخية، وينظر إليها في عناصرها البنيوية"⁽³⁾

"والظاهر وطار" حين يستدعي التاريخ الإسلامي يريد تبين مدى التقاطع الحاصل بينه وبين حاضره وعصره ومدى استمرارية وتشابه الأحداث في الزمان والمكان المنفصلين، ليلقي بثقل الصراع الذي يعيشه على الماضي، وبالتالي "فالتوازي المراد الكشف عنه بالعودة إلى الماضي هو ذلك التشابه الذي يجمع بين فترتين مختلفتين في الزمن متباعدتين، لكنهما متقاربتين في المعطيات السياسية والاجتماعية والثقافية والايديولوجية، وذلك بهدف المزج بين هموم الحاضر والماضي"⁽⁴⁾. فرغبة الروائي الأساسية هي انشاء كلية روائية سردية تقوم على الصيرورة التخيلية الموازية للنصوص التاريخية الموثقة من قبله، هنا يتجاوز الروائي قيمة السرد والاسترجاع الحرفي للتاريخ إلى النقد والتحليل وتفنيد الكتابة التاريخية فتصبح الكتابة السردية كتابة مضادة للتاريخ.

والرواية الجزائرية عندما تكتب التاريخ الإسلامي، تكتبه بواسطة تقنيات حديثة وتقروء قراءة حديثة برؤية تاريخية، فتحلل الشخصية التاريخية الرمزية تحليلا نفسيا محاولة ايها المتلقي بعقلانية الطرح والتحليل "فتصبح الشخصية نموذجا بشريا ولا تبقى أسيرة زمانها وفيها يتحقق الامتداد بين الماضي والحاضر، وتتعدد الضمائر ويجبر القارئ على المشاركة في الأحداث باندماجه في المقروء"⁽⁵⁾، ولمعالجة القضايا المتعددة والتي تدور حولها في فلك القتل باسم الدين رغم اختلاف الحوادث والشخصيات إلا أن الهدف والطريقة تبقى ذاتها على مر التاريخ وفي كل الأماكن. وقد استخدم الروائي تقنية تعدد الأصوات والأقنعة لتمثيل الشخصيات التاريخية تمثيلا سرديا تخيليا.

ورواية الولي الطاهر يعود الي مقامه الزكي من الروايات التي تحاول استنطاق التاريخ الإسلامي ونقده، وقد اعتمد الروائي في بناء نصه السردى على حادثة حروب الردة فهو يقول "اتكأت في هذا العمل على حالة وقف أمامها خليفتان، لا نقاش في

نزاهتهما موقفين متضادين هي حالة قتل خالد بن الوليد، لمالك بن نويرة، ففي حين طالب عمر بن الخطاب رضي الله عنه، بجرم خالد، وهذا موقف مبدئي في منتهى الصرامة القسوة قال أبو بكر رضي الله عنه، لقد اجتهد خالد... وخلصته، أنه يشك في إصابته فله أجر واحد" (6)

وهنا يتم إسقاط التاريخي على الواقعي، ليعالج بذلك قضية القتل باسم الدين حسب رؤيته أو مسألته التكفير الذي يجرم المرتد دون تبين الحقيقة والحكم المتسرع عليه بالجرم، فمالك بن نويرة في نظر الرواي البطل بريء من التهم الموكلة في حقه، والمتهم الذي وجب عقابه هو الصحابي خالد بن الوليد.

انطلق الروائي من الوثيقة التاريخية التي تدين خالد مقتبسا الحادثة من المراجع التاريخية التي فيها من الاختلاف والتباين في قضية قتل مالك بن نويرة الكثير فهو يقول "لقد تعاقبوا الواحد تلو الآخر على دار الكتب، يطلبون كتب التاريخ. الطبري واليعقوبي، البلاذري، بن بشار، الكلاعي البلنسي حتى كتاب الأغاني يا مولانا 7"، ومعظم هذه الكتب التاريخية أوردت روايات كثيرة للحادثة، مع نسبها لأصحابها وهذا الاختلاف والتعدد زاد من تعميم الحقيقة وحجبها، فراح كل شخص يروي الحادثة من منظوره الخاص ويتبنى الفكرة التي من شأنها تأييد رؤيته الإيديولوجية اتجاه القضية موضوع الكتابة، فإذا عدنا إلى كتاب تاريخ الطبري فسنجد هذا الأخير يورد جل الروايات المنصفة لخالد والمدينة له في الوقت نفسه "فالطبري يمتنع من إعمال العقل في رواية الأخبار، ينقل هذه كما وصلت إليه حتى إن خالفت أوامر الدين أو عارضت الذوق السليم" 8. وهو من المراجع التي عاد إليها "الطاهر وطار" بالإضافة إلى كتاب "الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء" للكلاعي، وقد أشار الطبري في نقله لروايات حروب الردة إلى عدم اتفاق الخليفة أبو بكر وعمر في قضية خالد وزواجه من أم تميم زوجة مالك "وتزوج خالد أم تميم ابنة المنهال وتركها لينقضي طهرها وكانت العرب تكره النساء في الحرب وتعابره وقال عمر لأبي بكر إن في سيف خالد رهقا فإن لم يكن هذا حقا عليه أن تقيده وأكثر عليه في ذلك وكان أبو بكر لا يقيده من عماله ولوزعته فقال هيه يا عمر تأول فأخطأ فأرفع لسانك عن خالد وودي مالكا وكتب إلى خالد أن يقدم عليه ففعل فأخبره خبره فعذره وقبل منه وعنفه في التزويج الذي كانت تعيب عليه العرب من ذلك" 9

وفي رواية أخرى للطبري يقول "حدثنا ابن حميد قال حدثنا سلمة قال حدثنا ابن اسحاق عن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، وكان

ممن شهد لمالك بالإسلام أبو قتادة بن الحارث بن ربيعي أخو بني سلمة وكان خالد يعتذر في قتله أنه قال له وهو يراجع ما أخال صاحبكم إلّا وقد كان يقول كذا وكذا، أما تعدد لك صاحباً ثم قدمه فضرب عنقه وأعناق أصحابه"10، فالقتل هنا كان متعمداً من قبل خالد بن الوليد، والنص الروائي يُدين خالد ويقف موقف عمر بن الخطاب الذي طالب الخليفة معاقبة خالد لتسرعته في قتل الشاعر الشريف كما ورد في الروايات التاريخية والمقتبسة من قبل الروائي فقد كان "شاعراً شريفاً وفارساً بارزاً، ممتعاً بالجمال"11. فالشرف والنبيل والفروسية سمات لا تكاد تفارق الرجل السوي الورع الممتن لا المرتد الطاعي، الذي بمجرد موت الرسول صلى الله عليه وسلم يمنع الزكاة ويعود إلى ما كان عليه في الجاهلية. وقتله إجرام في حقه وهذا ما دعا الطلبة والطالبات يصلون صلاة الغائب له لأنه فيما مضى اعتبر مرتداً فهم يطلبون الولي الطاهر أن يسمح لهم بالصلاة عليه "لقد قرروا يا ولي الله الطاهر، أن يرفعوا إليك عريضة يستأذنوك فيها بإقامة صلاة الغائب على مالك بن نويرة"12.

وبالرجوع إلى الحادثة كما وردت في سياقات أخرى ترى عكس ما ذهب إليه الطبري والكلابي، وأغلبها مالت إلى الصحابي خالد بن الوليد، وأنصفته. إذ حقق "علي العتوم" في القضية قائلاً: "إن الذي أرى مالكاً، كبره، وتردده فقد بقي للجاهلية في نفسه نصيب، وإلّا لما ماطل هذه المماطلتة في التبعية للقائم بأمر الإسلام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي تأديته حق بيت مال المسلمين عليه، والمتمثل بالزكاة"13.

هذه إدانة صريحة لمالك بن نويرة وتكذيب لباقي الروايات "فارتداده، ووقوفه بجانب سجاح، وتفريقه إبل الصدقة على قومه، بل ومنعهم من أدائها لأبي بكر، وعدم إنصاته لنصائح أقربائه المسلمين في تمرده، كل ذلك يدينه، ويجعل منه رجلاً أقرب إلى الكفر منه إلى الإسلام"14 وفي رواية أخرى ثخني خالد بن الوليد ولا تدينه، يقول الطبري "فجاءته الخيل بمالك بن نويرة في نضر معه من بني ثعلبة فكان فيمن شهد أنهم قد أدنوا وأقاموا وصلوا فلما اختلفوا أمر بهم فحبسوا في ليلة باردة لا يقوم لها شيء فأمر خالد منادياً "أدفتوا أسراكم"، وهي في لغة كنانة القتل فظن القوم أنه أراد القتل ولم يرد إلا الدفء فقتلوه فقتل ضرار بن الأزور مالكاً، وسمع خالد الواقعة فخرج وقد فرغوا منهم، فقال: إذا أراد الله أمراً أصابه"15. ومالك بن نويرة أوكله الرسول صلى الله عليه وسلم مصداقاً على قومه بني يربوع فكان من بين الصحابة المذكورين في هذه الرواية الذين وثق فيهم

الرسول صلى الله عليه وسلم، فالراوي يشير إليهم في قوله بضمير الغائب "بعضهم اهتم بإسلامه، وهل كان إسلاما صادقا، إلى درجة أن يكون محل ثقة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيبعثه من جملة المصدقين في العرب، عكرمة وحامية بن سبيع الأسدي والضحاك بن سفيان، وعدي بن حاتم، وغيرهم، وهم صحابة رضوان الله عليهم" 16، فالنص الروائي يحاور النص التاريخي من باب المجادلة والعودة إلى السبب الذي جعل الرسول عليه أذى الصلاة والسلام يثق في مالك دون غيره من الرجال، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على نزاهة وأمانة مالك. هذا فضلا عن موقف الفاروق عمر والمعروف بعدالته وحكمته، اتجاه واقعة القتل غير المبرر، والزواج المكروه في الحرب وهذا يبرز في الملفوظ السردى من خلال التساؤلات التاريخية والاحتمالات التي يجب على الناقد المتمكن طرحها إزاء التاريخ، إذ يطرح الروائي مسألة القتل العشوائي والتكفير المرتبط بالمنظومة العقائدية التاريخية، والتي حسب رأيه كانت تجتهد باسم الدين في القتل، وتستبيح دم الإنسان لمجرد الشك في إسلامه فالراوي يتساءل "هل يمكن الشك في إسلام مالك، إلى درجة قتله؟ لو أن مالكاً لم يقتل، هل كانت الحرب تتواصل ويسقط من الضحايا ما سقط، بعضهم اهتم بخالد بن الوليد رضي الله عنه، وراح يتساءل عما لو نفذ مطلب عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأقيم الحد عليه، من يكون الظالم ومن المظلوم" 17، فالسارد يحاول توجيه هذه الأسئلة لملتقى المتفاعل معه، ليعيد حساباته وينقب عن أصل الحقيقة التي طالما اعتبرها مقدسة، لا يجوز المساس بها، مستخدماً حوارية باختين كمفهوم سردي يوظف "للإشارة على علاقة الاستجابة، والتبادل بين القارئ والنص، عبر المفردات التي تعتبر علامات إيديولوجية تصنع بطريقة معينة حوار مع الآخر تجعله يدخل في سياق آخر تتقاطع فيه الرؤى المختلفة للعالم" 18. فالحقيقة التاريخية ليست حقيقة مطلقة بل نسبية تحتمل الصواب والخطأ، والتاريخ الإسلامي لا يعني تاريخ الإسلام، فالتاريخ يكتبه بشر غير معصومين بل وأكثر من ذلك فالصحابه أيضاً بشر عاديون، وخالد بن الوليد رضي الله عنه، حسب النص الروائي إنسان تحكمه السلطة وتسييره "قالوا، مهما كانت بطولته خالد، فليس فيه فتوة، لقد كان عسكرياً، يتصرف كما يتصرف كل عسكري، لا يهمه من أمر الحرب سوى كسبها، وسيحكم الله بينه وبين مالك بن نويرة" 15. فمالك صادق في إسلامه، وهذه الحجج التي أوردتها الرواية تدينه وتنسب العنف والتكفير إليه باعتباره أول قتل تكفيري باسم الدين الإسلامي، هذا ناهيك عن جعل رأسه أفضية لقدر. كما تمت إدانة أم متمم التي

بدورها استسلمت وانصعت لأوامر خالد " كيف أبدت أم متمم كل هذا الاستسلام وهذه اللامبالاة تجاه ما جرى لها أو على الأقل ما جرى حولها وما كان رد فعلها، ترى رأس مالك أضيفت لقدر...أكانت أم متمم هي التي وضعت القدر، فوق رأس مالك؟"19، فهذا الرؤية تتخذ كحجة إضافية ثدين خالد قتلته لمالك لم يكن بسبب منعه الزكاة، بل للظفر بأمر متمم التي كان يجيها في الجاهلية والروائي يمرر فكرة الصراع والإغواء المرتبط دائما بالمرأة، والمرأة نفسها سواء كانت بلارة، أم متمم في الرواية إحالة إلى الجزائر التي يتنازع حولها طرفين متناقضين هدفهما واحد وهو السلطة، فالإسلام السياسي وباسم الدين والجماعة وتغييب الآخر بل وتكفيره يريد تقلد الحكم، والدولة العسكرية لا ترضى بالتنازل عن سلطتها ومكانها ولو على حساب الشعب وتبقى الجزائر مستسلمة لهذه الحركات التي تتقاذفها من كل صوب . فحروب الردة التي حدثت في عصر صدر الإسلام والتكفير باسم الدين ما هي إلا انعكاس بالصورة نفسها في صحراء نجد أين كان للحركة السلفية الوهابية نصيب من القتل والعنف والتعصب الديني، فقد كان تمثيل الروائي لشخصية عن طريق تقنية القناع -محمد بن عبد الوهاب-زعيم الحركة السلفية المنتشرة في الدول الإسلامية على نطاق واسع والتي ذكرها الراوي من خلال تقمصه شخصية عبد الوهاب، والإرهابي الذي يقتل في الجزائر ومناطق أخرى عربية ويدعو إلى الحرب على الأعداء هذه الحرب التي اعتبرت حربا مقدسة ومبررة من قبل هؤلاء الجماعات، فالراوي وفي سياق حديثه عن الاقتتال بين المسلمين فيما بينهم قال "تبادل الخصمان الأولان رسائل لاسلكية، وقرروا أن هذا الطرف الثالث في هذه الحرب المقدسة، لن يكون سوى طرف عميل دخيل، اندس بين الصفوف لشقه"20. فهو يقول على لسان زعيم الحركة الجهادية السلفية " لعلهم اطلعوا على مشروعنا فجاءوا يستبقوننا قلنا، نحصن الدرعية، ثم نبدأ بعيننا، ننطلق أول الأمر من عشيرتنا والقبائل، فنأتي أولا على الأحساء، ثم نتجه إلى الغرب، حتى الكويت، ثم نتقدم نحو الشمال، حتى كربلاء وقبر الحسين. نجتمع شمل قبائل نجد، ونشن الهجوم على مكة، والنجد ودمشق، ونواصل نحو الشمال حتى حلب. وكل بلاد العرب والإسلام، نحررها من عبادة الأوثان وتقديس القبور، وتعاطي المحرمات، طبقا للآراء الإمام أحمد بن حنبل، وتفاسير بن تيمية عليهما الرحمة. مادام شيخ عنزة قد وافق فلنعد الخلافة من هنا. من الدرعية وعيينة والأحساء. ننهض هؤلاء المستكينين الجهلة الأذلاء، ونبدأ من حيث بدأ العرب الأوائل"21، وفي الجملة الأخيرة نبرة سخرية وإشارة مباشرة إلى لهجة العنف والالتهام بغير وجه حق ودون

تبيين، وتعميم الصفات السلبية على كل الناطق والناس الذين يقطنونها فهو يقول (هؤلاء المستكئين الجهلة)، فيتم إسناد العلم بالطريق غير المباشر لهم فقط، فإذا كانت هذه هي اللغة التي يتكلمون بها فبمالك أفعالهم وتكفيرهم وقتلهم كل من يحمل فكر معادي لمذهبهم، فكر تعود جذوره إلى التاريخ الذي نشأت فيه الحركة والمرتبطة بتاريخ العنف الذي قامت به على أرض الواقع، فأول ما قامت به هذه الحركة التي تحمل فكرا طائفي تطرفي، هو احتلال شبه الجزيرة العربية والأحساء والكويت والحجاز واليمن وعمان، وتحطيم قبور الأولياء وهدم المساجد المزخرفة، والكثير من الأعمال التخريبية التي لا تمت بصلة إلى الدين الحنيف وقد أضاف السارد البلدان الغربية ضمن الخطة التي يعتمد عليها أصحاب هذه الحركة باسم الفتوحات الإسلامية المتجددة "نعيد الجهاد في سبيل الله، إلى ما كان عليه، ونستأنف الفتوحات نستعيد القسطنطينية، والمغرب والأندلس، ونصل هذه المرة، موسكو وباريس وكوبنهاغن، والهند والسند وكل العالم. يدخل الناس أفواجا في دين ربهم أو يدفعون الجزية". 22، فالملفوظ السردى يتناص مع سورة "النصر" وفق آية التآلف والتخالف فالتآلف واضح في عبارة يدخلون في دين الله أفواجا المتناصّة مع السورة {إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك استغفره إنه كان توابا} 23، تقرر الآية بأن الله سبحانه وتعالى أعان رسوله الكريم على أعدائه في فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة، فدخل بذلك العرب في الإسلام جماعات جماعات، فالفتح غايته إثبات الدعوة السليمة والرسالة الحقّة، فكان النصر حليفه، وثبتت بذلك أسس الإسلام، وعلت كلمة الحق، فالشخصية الروائية بخطابها المباشر بضمير المتكلم الجمعي "نبأ من حيث بدأ العرب" تسعى لإدماج العرب وغيرهم في هذه الفرقة المتطرفة التي تلبس عباءة الدين، لكن التخالف والمفارقة، يكمن في الطريقة والأسلوب المتبع من قبل الرسول صلى الله عليه وسلم كما هو معروف، مقابل الفكر الإقصائي التطرفي المبني على قناعات دينية، وفتاوى دينية مغلوطة وغير منطقية المقترنة بالعنف، البعيد عن الدين الإسلامي، فكانت الغاية المصلحة، والسلطة وتقلد الحكم لا غير. فتجاوز بذلك الفتح السلفي للجماعة فتح مكة إلى فتح الدول الغربية، موسكو وباريس وكوبنهاغن. الخ، فالروائي ببعثه النص التاريخي، يريد الكشف عن العبث الذي مورس من قبل في التاريخ باسم الشرع والدين، فهو بعث مرده الكشف عن العبث المستمر في الحاضر، ليكون الرجوع إلى الماضي متنفسا يروم من خلاله الروائي رمي ثقل الحاضر، وأحزانه على الماضي، الذي يرى أنه السبب

فيما يحصل وسيحصل إن لم نعد القراءة والتريث في الحكم . وليكشف الروائي عن الآثار التي خلفها التاريخ الإسلامي ، أو حروب الردة التي تتكرر عبر الزمن، جسد ذلك من خلال الأقنعة التي يلبسها الولي الطاهر أثناء غيبوبته، أو بالأحرى أثناء شطحاته الصوفية، يقول الراوي بهذا الصدد : "أخذته رعشة، واعترقته حمى، وداهمته غمى، فكبر وشمر على ذراعيه، وارتمى يخوض أوار مجزرة، ملتهبة". 24، فقد تمثل صورة الإرهابي الذي يدخل الحرب في الجزائر أثناء العشرية السوداء، ويقاوم مع جماعات لا يعرف كنهها ، وليعرف حتى ضد من يقتل ولماذا يقتل ، ما يحيل على اقتراب الساعة، أين يقتل الأخ آخاه لا لسبب ودون مبرر: "لم أكن أعرف القوم، لكن يكفي أنهم كانوا يشنون حربا". 25 ، وعلى لسان البطل الولي الطاهر، هذا البطل المغترب التائه والمتشظي بتشظي المكان والزمان الصوفي الروائي الذي يعيش في كل الفضاءات الروائية ولايستكين ولايستقر في بعد فضائي محدد، يترك الراوي للشخصية الروائية الحرية، في التعبير عن رأيها، مستترا ورائها ليخفي إيديولوجيته، الراضية لهذه البنية الفكرية المتطرفة الإقصائية للآخر العربي، المسلم المعادي لفكره يصف وحشية الحوار، المرتبط بالقتل، فكان الفضاء الروائي المتخيل، هو حي الرايس بالجزائر "الاستغاثات تتعالى في كل شبر، من حي الرايس، والانفجارات تتوالى. والدخان يصاعد مع الغبار، وأنفاس الجميع تضيق.

- أخرجوا الجميع، نساء ورجالا إلى الشارع. الذكور ينبطحون على بطونهم، أما السبايا، فعلى ظهورهن". 26. فالمرأة لا تصلح إلا للسبي، طبعا إذا تم اختيارها من طرف الجماعة الإرهابية وهذا هو سبب وضعية الانبطاح على الظهر. والباقي القتل والموت هو الطريق الوحيد الذي ينتظرهم.

وليبرروا فعلتهم الشنيعة، استخدموا الدين، كغطاء يقدس الجريمة، المرتكبة في حق الأبرياء، والمستوى الدلالي للحوار العنيف الذي مضمونه القتل الشنيع، الموحى بفضاعة الإنسان القاتل باسم الشرع والدين، الذي يغيب عقله وإحساسه ويتحول إلى مجرد أداة قديمة تقطع دون رحمة رؤوس البشر، فالساطور من أبشع الأسلحة التقليدية قسوة على الحيوان فما بالك البشر، والحوار الخارجي بين البطل الذي يمثل الجماعة وبين الضحية والذي ورد في النص الروائي يوضح عنف اللغة وعنق الواقع معا " لا إله إلا الله. أشهد أن لا إله إلا الله. أشهد أن محمدا رسول الله.

- يهوي الساطور. يتدفق الدم. يتطاير الرأس.

- أنا مسلم أصلى أصوم أحفظ فرجي وعرضي.
- يهوي الساطور. يتدفق الدم. يتطاير الرأس.
- يا إخوتي. يا إخوتي.
- يهوي الساطور. يتدفق الدم. يتطاير الرأس.
- رضعة واحدة واحدة فقط لوليدي. اسمعوا إنه يصرخ عطشان.
- رضعة واحدة يا مؤمنين، وافعلوا بي بعدها ما تشاؤون. رض...
- يهوي الساطور. يتدفق الدم. يتطاير الرأس. 27

فكما انمحي القرآن كله من ذاكرة الولي الطاهر بطل الرواية، عدا سورة الفاتحة والأعلى، انمحت جل الرحمة الإلهية التي أودعها الله، في الإنسان المؤمن فلم يعد يفرق بين المرأة والرجل وبين الرضيع والمريض، الظالم والمظلوم، وهذا ما حدث بالفعل في الواقع. واستشرف له الروائي مستقبلا جراء الفهوم الدينية المغلوطة للخطاب الديني.

وإذا عدنا إلى شخصية المرأة، كشخصية تاريخية في الرواية، فإننا نلاحظ حضورها في شخصية "بلارة بنت تميم التي أوقفت الحرب بين "بني مالك الناصر" وابن عمه "تميم المعز" بالزواج من الملك ناصر، زواجا مصلحيا ونفعيا يعود بالنفع على الجميع، فحققت بذلك الدماء ووضعت حدا للقتل والتقتيل، فهي تعتبر "من ربات العقل الهمة وكرم الشمائل. ولدت بالمهدية، وعنى والدها بتربيتها تربية عربية، قوامها العلم والدين ولما شبت، رغب الأمراء في خطبتها...فزوجها والدها ابن عمها الذي أمهرها ثلاثين ألف دينار ذهباً فأخذ تميم من ذلك المبلغ دينارا واحدا ورد الباقي" 28

فكان دور المرأة في هذه الحقبة التاريخية دورا فاعلا في الزمان والمكان غيرت أحداث كادت أن تقع لولا رجاحة عقلها وفكرها السوي، متجاوزة بذلك الدور التقليدي المنوط بالمرأة، لتتحول إلى بطلة تحمل لواء الدين الإسلامي وتحافظ على مبادئه ولو على حساب مصلحتها ورغبتها الشخصية، تجمع بين الصناعات وبين حماد بدهائها السياسي وعلمها وجمالها، لكنها في زمن الرواية تتناص مع الشخصية التاريخية تناصا عكسيا وتخالفيا، فهي مجرد امرأة تشجع على الغواية، والرذيلة والتخلي عن الأصل لتعيد بناء نسل جديد لهو بالقديم ولا الجديد. ففي إطار وصفها يتوقف زمن الحكى ليكشف عن أهم سماتها والتي تظهر الطاهرة وتخفي الدناءة إذ يقول الراوي بضمير الغائب: "كانت شبه عارية، طرحت جلبابها، ثم قميصا حريريا ورديا، ثم سروال جينز بعضه مبيض وبعضه يحتفظ بزرقتها الدكناء، وقذفت

بجذائها ذي الكعب العالي، بعيداً عنها غير مبالية بموقعه" 29، فنزع الجلباب رمز الهوية الإسلامية للمرأة المسلمة، كان بالنسبة لها مجرد غطاء تتخفى فيه وتبطن داخله نوايا غير أخلاقية البتة، وهذا ما جعل الولي الطاهر يفكر في التخلص منها بسفك دمها والتي حذرته منه، فيقرر خوض معركة معها "قرر أن يبدأ المعركة" 30، فبعد أن كانت بلارة بطلة في التاريخ الإسلامي تحقن الدماء وتمنع نشوب الحرب والمعارك، غدت بلارة الشخصية المتناصبة في الرواية، العدو والسبب في سفك الدماء. وهي في الرواية رمز للعولمة الغربية التي تريد احتلال العقول والأجساد باسم الجديد والمعاصر والجديد في الرواية، عصر متعلق بالنسل الذي يمثل كل الناس الذي تطالب به بلارة، الأمر الذي يحيل على سطوة ومركزية غربية تريد تنميظ الفكر والثقافة ولو على حساب الدين.

فالإطار العام للرواية ينطلق من فكرة مؤداها البحث عن المقام الزكي والعودة إليه، فكانت رحلة البحث عنه شاقة، تدور في فلك اللانهاية واللامكان، زمان الحروب والفتن، أملت العودة إلى المقام، لتؤسس لمدينة أفلاطونية تبتعد عن هذه الجرائم الإنسانية، مدينة العصر الأول للإسلام الحقيقي، لتتعدى بذلك كل العصور المتبينة خطابات دينية مغلوطة، مؤسسة على منطق اللامنطق، خطابات في أصلها سياسية، مدعمة للأقلية، رافضة للأغلبية رفضاً استئصالياً، فغدت العودة حلم مستحيل بعيد المنال. فالبعد كامن في عدم الرجوع إلى الأصل (التاريخ الإسلامي)، والبحث في مضمراته وتفنيد قدسيته لتصحيح النظرة التقدسية له، واستبدالها برؤية نقدية علمية، تعالج الواقع وتنقص من حجم مآسيه.

الهوامش :

- 1 عبد الله إبراهيم: التخيل التاريخي: السرد والامبراطورية والتجربة الاستعمارية، المؤسسة العربية، عمان، ط1، غلاف الكتاب.
- 2 سعيد يقطين: الرواية والتراث السرد، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط2، 2006، ص 07.
- 3 سعيد يقطين: انفتاح النص الروائي: النص والسياق، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب ط2، 2001، ص 153.
- 4 محمد داود: الرواية الحديثة: كتابته الآخر والهاك، منشورات وهران، 2006، ص 16.
- 5 - مخلوف عامر: توظيف التراث في الرواية الجزائرية: بحث في الرواية المكتوبة بالعربية، منشورات دار الاديب، ط1، ص 17.
- 6- الطاهر وطار: الأعمال الروائية الكاملة، وزارة الثقافة، الجزائر، المجلد الثالث، 2010، ص 226.
- 7 - المرجع نفسه ص 257.
- 8 - عبد الله العروي: مفهوم التاريخ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 1992، ص 25.

- 9 - أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: تاريخ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، المجلد الثاني، من السنة الأولى للهجرة إلى غاية السنة 35 للهجرة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1995، ص. 273.
- 10- المرجع نفسه ص. 272.
- 11 - الطاهر وطار: الأعمال الروائية الكاملة، ص. 258.
- 12- المرجع نفسه ص. 259.
- 13- سامي بن عبد الله بن أحمد المعنون: أطلس حروب الردة في عهد الخليفة الراشد أبي بكر الصديق
- شركة العبيكان للأبحاث والتطوير، الرياض، ط1، 2008، ص. 25.
- 14- المرجع نفسه، ص. 104.
- 15- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: تاريخ الطبري، ص. 273.
- 16 - الطاهر وطار: الأعمال الروائية الكاملة ص. 258.
- 17 - المرجع نفسه ص. 259.
- 18 -سمير حجازي: المتقن: معجم المصطلحات اللغوية والأدبية الحديثة (فرنسي عربي، عربي فرنسي)، دار الراتب للنشر والتوزيع القبة، الجزائر، د.ط، ص. 207.
- 19- الطاهر وطار: الأعمال الروائية الكاملة ص. 272.
- 20- المرجع نفسه ص. 247 .
- 21 - الطاهر وطار: الأعمال الروائية الكاملة ص. 272.
- 22- المرجع نفسه ص. 273.
- 23- سورة النصر، ال آية 110.
- 24- الطاهر وطار: الأعمال الروائية الكاملة ص. 296.
- 25- المرجع نفسه ص. 298.
- 26- المرجع نفسه ص. 302 ، 303.
- 27 - المرجع نفسه، ص. 344.
- 28- رضا عمر كحالة: أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ج 5، طبعة مزيدة، دس، ص. 305، 306.
- 29 - الطاهر وطار: الأعمال الروائية الكاملة ص. 289.
- 30 - المرجع نفسه ص. 289.